بين الإنسان والشجرة

٣٠/ ١/ ١٤٣٨هـ

لا أدري لم استوقفني منظرُ شـــجرةٍ -مقابِلة لمنزلي قبل أيام- نستظل بظلها، ونتقي به لهب الشمس المحرقة! توقّفتُ عندها قليلًا، وتساءلتُ: كم يوجد في الأرض من شجرة من جنس هذه الشجرة ومن غير جنسها؟ وما الذي جعل لها هذه القيمة عندنا؟ وهل ســتكون لها مكانةٌ لو كانت دون نفعٍ أو أثرٍ؟

هكـــذا هم الناس! نلاقي في حياتنا الكثـــيرَ والكثير، لكن لا يَبقى في الذاكرة منهم، إلا من كان له أثرٌ فينا؛ بعلمٍ أو تجربةٍ أو صحبةٍ حســـنة، أو موقفٍ إنسانيٍّ، أو غير ذلك من صور التفاعل الإيجابي.

يلفتُ نظري كثرةُ القواســـم المشتركة بيننا وبين الشجرة، ومن ذلك: أن لكلٍ واحدٍ منا عُمرًا افتراضيًّا، فهو يُوجد بعد أن كان عدَمًا، ثم يعيش ما كتبَ اللهُ له، ثم يموت!

وأكثر الأشـــجار أثرًا ليســـت تلك التي عُمّرت طويـــلًا، أو أَخذت مساحةً أوسع في الأرض، أو اســـتهلكت ماءً أكثر لسقيها، كلا، بل هي

تلك التي انتفع بها الناسُ أكثر، وهكذا الإنسان، لا تقاس حياتُه بطول سنواته، أو بكثرةِ أمواله، وتعدُّد شهاداته، بل بمساحة تأثيره في هذه الحياة، ولهذا لما أرادَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يوصل جُمْلةً من هذه المعاني؛ طرح سؤالًا على الصحابة، فقال -كما في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: «**إن من الشجر شجرةً لا يسقط ورقُها، وإنها مثل المسلم، فحدثوني ما هي**» فوقع الناسُ في شجر البوادي، قال ابنُ عمر: ووقع في نفسي أنها النخلة، فاستحييتُ، ثم قالوا: حدِّثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: «**هي النخلة**»[1].

فتأمل معي -أخي القارئ- روعةَ هذا التعليق من القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ حيث أبدَعَ في بيان وجه الشبَه بين المؤمن والشجرة، فقال:

«ويشبّهها بالمسلم؛ لكثرة خيرها، ودوام ظلها، وطيب ثمرها ووجوده على الدوام. وأما في رؤوسها: فمن حين تطلع إلى أن تيبس تؤكل أنواعًا، ثم بَعْدُ هو مما يُدّخرُ، فلا ينقطع نفعُها، قال الله تعالى: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۝٢٤ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم:٢٤-٢٥]، ثم في جميعها منافع: مِن استعمال جذوعها في البناء والآلات، وجرائدها حطبًا وعصِيًّا ومخاصِر ومَشاجِب وحُصُرًا، واستعمال ليفها حبالًا وخُطُمًا وحشو الوسائد، والمرافق والبراذع وغير ذلك، واستعمال خوصِها مَكاتل وحبالًا وحُصُرًا.

ثم في جمال بنائها، واعتدال قيامها، واستدارة جذوعها وثمرها، ثم تؤكل رطبة وجمارة، فهي منفعةٌ كلها، وخيرٌ وجَمال»[2].

---

(١) رواه البخاري (رقم٦١)، ومسلم (رقم٢٨١١).
(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم (٨/ ٣٤٥).

وهكذا -والله- المؤمن النفّاع، كثيرُ الخير يرى الناسُ مِن أثره في الحياة وبعد الممات.

ألســـنا نرى كم انتفعت الأمةُ بأثر جهاد الصحابـــة العلمي والعملي في بلاغ الرســـالة، ونشر الشريعة؟ وقُلْ مثل هذا في التابعين ومَن تَبِعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أليســـت كتبُ الأئمة الأعلام بين أيدينا؛ نقرؤها، ونســـتجلي منها ما يُعين على فَهم كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ وهم في قبورهم منذ مئات السنين!

وفي المقابل، فمِن الأشـــجار ما يكون منظره جميلًا، لكنه يحمل في ثنايا أغصانه الشوكَ المؤذي! وهكذا حالُ بعضِ المنافقين، وأصحابِ المصالح الآنية، قد تجد منهم جمالَ منطقٍ، أو حُسْـــنَ بيانٍ، أو مظهرًا متميزًا، ثم ما أسرع ما يؤذيك بما يَظهر مِن مخابره السيئةِ عند أدنى ملابسةٍ معه! فاحذر، فإنك لا تجني من شوكِ هؤلاء عنبًا.

وبالجملة، فإن الأشجار كما الإنسان، ليست سواء، والعاقلُ مَن تشبّه بالشجرة حســـنة المنظر، جميلة المخبر، عظيمة الأثر، والسعيدُ من تأمَّل، واعتبر، جعلنا الله مباركين أينما كنا.